



-1-

تعرّضَت الثورةُ السورية المباركة إلى حربٍ شرسةٍ ما عرفَتها من قبلها ثورةً قط، فإنَّ العالم تخلَّى عنها أولاًً وتركَ عدوها ليقاتلها ويقتلها كيما يشاء، ثمَّ حاصرها وظاهرَ عدوها على حربها وأمده بكلِّ أسبابِ القوة التي عرفها الناس، فلما لم يفلح شيءٌ من ذلك في قتلها جمعَ للكيدِ لها أخبثَ العقول وحاكَ لها أسوأَ المؤامرات.

كان ينبغي أن تموت الثورةُ ألفَ مرة لو أنَّ القوانين التي تعمل عملها فيها هي قوانين الأرض، ولكنها لم تَمُتْ أَيَّ مِرَة لأنَّ القانون الذي تسير عليه هو قانون السماء، وما عقدته يد الله لن تنقضه يد بشر.

على أن إرادة الله تعمل من خلال الأسباب، وقد أخذ الشعب السوري المجاهد المصابر بكلِّ ما يستطيعه منها. ومن هذه الأسباب النُّقدُ والمناصحة والتقويم، فإنَّها أكسبت الثورةَ السورية واحدةً من خصائصها العجيبة، وهي أنها صارت ثورة "ذاتية الحركة" وثورة "ذاتية التصحيح".

-2-

لكي تبقى الثورة في أمان لا بدَّ من الاستمرار في التقويم والنقد والنصائح والتتصحيح بلا كلل ولا ملل.
ولكن قد تنشأ هنا شبّهتان:

الأولى قولهم أنَّ المناصحة والنقد لا يكونان على الملا، بل يجب أن يقدمهما المسلم لإخوانه في السر حتى لا تحول النصيحة إلى فضيحة.

وهذه القاعدة صحيحة في النصيحة الخاصة لأفراد الناس المعينين، فلا يجوز أن أقف في وسط الطريق وأصبح بالصوت العالي: يا فلان، لقد علمت أنك ترتكب تلك المعصية وإنني أنصحك بتركها!

لا، هذا لا يجوز ديناً ولا يجوز مروءة، ولو أننا فضحنا من تکَّمَ على معصيته فإننا نُعين شيطانه عليه ونهونَ المعصية على غيره من الناس، وهذا ذنبٌ نُلام عليه ويحاسبنا عليه الله.

أما إذا صار الخطأ عاماً فإنه لا يعالج إلا بالنصيحة العامة لكي يصل الصواب إلى كل من وصل إليه الخطأ، ومن قال غير

ذلك فقد أخطأ في الفهم، لأن الناس يرون الخطأ العام نهاراً جهاراً، فكيف يكون نقده خُفيةً واستثاراً؟ لو قبلنا بذلك فسوف ينتشر الخطأ بين العامة ويقتصر تصويبه على الخاصة، فيضيّع الحق وبأكله الباطل، ولو فعلنا ذلك في ثورتنا فعليها السلام.

-3-

الشَّبَهَةُ الثَّانِيَةُ:

لا يكاد أحدٌ يشير إلى أخطاء الجهاد وعثرات المجاهدين حتى يقفز في وجهه من يقول: "لا يصح أن يتحدث قاعد عن مجاهد، فإذاً أنا تذهب إلى الميدان أو تلزم الصمت".

ثم إنهم يحرّمون نقد المجاهدين جملةً فيقولون: "لا يجوز ندهم لأنهم يقدمون أرواحهم في سبيل الله، فخطؤهم مقبول وذنبهم مغفور".

الاعتراض الأول لا أصل له ولم يثبت في عقل ولا نقل، بل إن المشاهد والغالب أن يتبسّس الأمر على أهل الميدان فيقعوا في الخطأ بسبب الضغط الذي يتعرضون إليه أو بسبب اطّلاعهم على جزء من الصورة لا عليها كلها، مما أحوجهم إلى غيرهم من أهل الرأي وال بصيرة الذين سلّموا من الضغوط واطّلعوا على تفصيات المعركة كلها.

أما الاعتراض الثاني فإنه أغرب وأعجب، فمتي كانت النصيحة خاصة ببعض الناس دون بعض؟
لقد راجعت حديث "الدين النصيحة" فلم أجده في روایاته كلها عبارة "إلا المجاهدين". ولا يُقال أحدٌ إن النصيحة المجردة جائزة في حقهم وإن النقد لا يجوز، فإن تقويم الخطأ لا يتم إلا بهما معاً، النقد لبيان الخطأ والنصيحة لاجتنابه.
ولما نجد أن القرآن قد نقد مجاهدي الصحابة نقداً قاسياً ووجه إليهم اللوم الشديد وهو في أسوأ حالاتهم النفسية والبدنية بعد أحد، ولو كان في تأجيل ندهم ولوهم خير لأجله - تبارك وتعالى - حتى تبرأ الجراح وتعافي النفسيات. أمّا مجاهدونا اليوم خيرٌ من مجاهدي الصحابة يا أيها العقلاة؟

أما قولهم إن الخطأ من المجاهد مقبول فإن هذا قد يصح لو كان الخطأ مما يؤثّر فيه ويقتصر عليه، أما إذا كان يؤثّر في حياة الجماعة ويعرضها إلى الخطر فلا يُقبل صدوره عن المجاهد ولا يُقبل السكوت عنه من الآخرين.

-4-

إذن فإن النصيحة لازمة في كل وقت وواجبة في حق كل واحد، سواء أكان من المجاهدين أم من عامة الناس، فمن رأى خطأ ثم لم ينكّره ولم يسع في تصحيحه فليستعد لسؤال الله منذ اليوم. على أنها تُشرط في النصيحة شروط وفي مقدمها شروط وفي متاليتها شروط.

يُشرط في الناصح الإخلاص وتجنب الهوى وتحري الحق وابتغاء رضا الله. ويُشرط في النصيحة أن تنتصر إلى الفعل لا إلى فاعله وأن تلتزم بالأدب والبعد عن الإسفاف.

أما المنصوح فلا ينبغي له أن يطعن في إخلاص الناصح لأن السرائر خافية على العباد لا يطلع عليها إلا رب العباد، ويُشرط فيه أن لا يتعالى على النقد والنصيحة، وأن يعلم أن نقد الأفعال لا يعني بالضرورة نقد الفاعلين.

عندما يتوهّم المنصوح (أو أنصاره ومُحبّوه) أن الناصح يتهم على شخصه فسوف تدفعه وتدفعهم الحمية والعصبية إلى رفض النصيحة بالكلية، ومن ثم لزم التنبيه إلى الفصل بين الفعل وصاحب الفعل.

فلو أتني انتقدت مبادرة الشيخ معاذ للحوار (وقد فعلت) فلا يعني هذا أبداً أنني أنتقد شخصه، وكيف أفعل وأنا أعلم أنه من

أخلص الناس وأكثراهم استقامة ونزاهة وشرفًا وحرصاً على الأمة والدين؟

ولو أتني انتقدت تجاوزات مجاهدي "الدولة" والممارسات الخاطئة التي تصدر عنهم (وقد فعلت) فلا يعني هذا أبداً أنني أنتقد أشخاصهم، وكيف أفعل وأنا أعلم أنهم قد تركوا الدنيا وفارقوا الأهل وأقبلوا على الموت في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من المؤمنين؟

-5-

ختاماً:

سوف ينشأ اعتراض ما زلت أسمعه حتى أيقنت أنه سيتكرر بعد نشر هذه المقالة.

سيقول بعض الناس: نحن نقبل النصيحة ونقبل النقد ولكننا لا نقبل التحريض على الجهاد وعلى المجاهدين.

ربما كان في الإعلاميين والكتاب من يحرّض على المجاهدين حقيقة، ولكن هذه التهمة لا يصح إطلاقها في حق المخلصين الصادقين الذين تشهد لهم سابقة أعمالهم وما سلف من كتاباتهم بالحرص على الجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين. نعم، هؤلاء يمكن أن يكونوا محرّضين، وأنا منهم، ولكن ليس على المجاهدين، بل على تصويب أخطائهم وعلى منعهم من الإساءة إلى أنفسهم وإلى الجهاد والبلاد والعباد.

وليس هذا تحريضاً، بل إنه من النصرة التي أمرنا بها، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرنا فقال: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً".

قال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: "تمنعته من الظلم، فإن ذلك نصره".

فإما أن المجاهدين معصومون، أو أنهم يخطئون فيظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم، فمن رأى من ذلك شيئاً ثم سكت مهابة أو مجاملة فقد ترك نصرة أخيه، وتقاعس عن القيام بفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخان الله ورسوله وخان جماعة المسلمين.

* * *

ما لم نصبح كلنا حراساً على الجهاد مدافعين عن صوابه محذرين من أخطائه فسوف ينحرف - لا قدر الله - عن مساره القويم ويقع في الخطأ الجسيم، وقد تضيع معه الثورة كلها ونعود إلىأسوء من الحال الذي كنا فيه.
أيّ ثمن عظيم ندفعه عندما نهاب أن نقول للمخطئ "أنت مخطئ"؟

أرجو أن لا تكون من الذين قال فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم فقد تُؤدِّعَ منهم".

الزلزال السوري

المصادر: